قراءة في قصيدة عم عبدالرحيم

محمد الحسن سالم حميد ، من شعراء الأرض ، شأنه في ذلك شأن الشاعر محمد بادي الذي يقول عن نفسه إنه شاعر "ترابالي""فلاح" تجسيدا للانتماء للأرض.

نشأ حميد في "نوري" ثم انتقل إلى عطبرة ثم بورتسودان،"نوري" أعطته التصاقا بالأرض ، قربا من قضايا الفلاحين ومعاناتهم ،تمسكا بالجروف والتراب والسواقي، أما عطبرة وبورتسودان فمدينتان اتصل فيهما بالعمال وعرف معاناتهم عن قرب ، العمال في السكة حديد عطبرة والميناء بورتسودان.

ثم ذاق الغربة وعرف طعمها وعايش معاناتها عندما سافر إلى المملكة العربية السعودية ،كأنه بهذا الارتحال أراد أن يُنضِج تجربته وأن تتجسد في شعره ملامسة الواقع ؛ استكمالا لدوافع الإبداع لديه ؛ ليكون صوتا معبرا عن كل شرائح الشعب السوداني.

قصيدة "عم عبدالرحيمّ –موضوع الدراسة -من القصائد التي توافرت لها كل عناصر العمل الفني الناجح.، شاعر مبدع ، ملحن مميز، مغنّ مدهش.

يمكن تصنيف قصيدة "عم عبدالرحيم" ضمن الشعر القصصي ،الذي أول من أبدعه عمر ابن أبي ربيعة في العصر الأموي.

أحسنَ حميد حينما أعطى القصيدة لمصطفى سيد أحمد ، ذلك الصوت الذي عبّر عن آلام الغلابة، وصار لسان كل موجوع، وصوت كل مفجوع؛ إذ تمكّن مصطفى من إعطاء معاني القصيدة إيحاءاتها وظلالها الحقيقية كما أراد حميد.

القصيدة عبارة عن قصة كفاح يومية ومسيرة نضال مستمرة لأسرة فقيرة ، تبدأ الأحداث برجل سوداني متوكل على الله:

فتاح يا عليم

رزاق يا كريم

صلى على عجل

حصن للعباد

هوزز سبحته [1]

دنقر للتراب [2]

همهم همهمة [3]

يحمل معه معاناته اليومية فالهموم متراكمات عليه :

هم فوق هم هما[4]

اختار حميد لبطل قصيدته القصة اسم "عبدالرحيم" وهو اسم صعب موسيقيا ؛لأنه يتكون من مقطعين، لكن حميد تمكن من تطويعه بمهارة.

بدأت القصيدة "القصة" بإشارات سريعة تجسّد البرنامج اليومي:

الصلاة، الأذكار، الطلبات الصباحية .الخروج للعمل....

يبرز فيها الجناس الرائع الرائق بين "همهم همهمة" وبين "هم فوق هم هما" ؛ مما أدى لتحفيز المتلقي للاستعداد للأحداث القادمة ،وللجمال الذي سوف يتدفق ، وللروعة التي سوف تنداح.

تشير القصة إلى أن زوجة عبدالرحيم لم تصبّح عليه ،ولم تكلمه صباحا وكان أمرا مستغربا :

لا قالتلو كيف

كيف أصبحت كيف

لا لمسة حنان ، لا لمسة وداد

---

(١) "حرّك مسبحته".
(٢) "انحنى"همهم همهمة.
(٣) حرك شفتيه بصوت منخفض"
(٤) "هموم متراكمات"

لا رمشة طريف

لكن تزول الدهشة ، حين نقرأ المقطع التالي أو المشهد التالي:

كانت ماها في [1]

كانت في المراح

شدتلو الحمار [2]

تحلب في الغنم لي شاي الصباح

والطير ما نضم ، ما رسّل نغم [3]

تقوم بمهمتها في خدمة زوجها ، صباحا باكرا قبل غدو الطيور، فهي تغتدي والطير في وكناتها.

ذكّرته بطلباتها المنزلية اليومية ، وذكرت له طلبا خاصا بها :

قالتلو النعال والطِّرِق انهرن الحذاء والثوب تقطعا

ما قالتلو جيب [4]

شيلن يا الحبيب [5]

غشهن النقلتي والترزي القريب [6]

لم تطلب ثوبا جديدا ولا حذاء آخر ،وإنما طلبت إصلاحها ؛ لأنها تعرف ظروفه وحاله، وهنا تتجلى قمة الرحمة الزوجية ،

(وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) [7]

---

(١) "لم تكن موجودة"
(٢) جهزت له
(٣) لم يصدح
(٤) لم تقل له اشتر لي جديدا
(٥) خذها
(٦) من يصلّح الأحذية
(٧) سورة الروم : الآية ٢١.

هنا شخّصت زوجته المشكلة " النعال والطرق انهرن" ، وحددت الحل "غشهن النقلتي والترزي القريب" هنا قمة القيادة المنزلية كما قال ستيفن كوفي :

"إذا نقلت المشكلة إلى مديرك ، فأنت مراسل، وإذا نقلتها مع اقتراح بحلها، فأنت مستشار، أما إذا نقلتها وقد بادرت في حلها، فانت قائد". [1]

هنا يكمن ملمح بلاغي رائع جسّده حميد في هذا المشهد وهو ما يسمى في البلاغة اللف والنشر ، ومعناه أن تجمع أمرين بآخرين ، الأول له علاقة بالأول والثاني له علاقة بالثاني ، ولهذا شاهد في القرآن الكريم في قوله تعالى:

(ومِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[2]

الليل لتسكنوا ، والنهار لتبتغوا

ومن شواهده في الشعر قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسًا ... "لدى وكرها العناب والحشف البالي

شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب ، واليابسة بالحشف البالي .

هنا في قصيدتنا ربط الشاعر بين :

النعال " النقلتي – الطرق "الترزي"

لكن الزوج الكريم لم يوافق على حل زوجته النبيلة الأصيلة؛ لأنه يعرف أن إصلاح الثوب والحذاء لن يجدي ؛لكثرة ما تم ذلك من قبل .

فقال :

طقّهن ما بفيد [3]

انطقن زمن [4]

---

١) ستيفن كوفي ، العادات السبع الأكثر فعالية .
٢) سورة القصص : الآية ٧٣.
٣) إصلاحها لا يجدي
٤) لقد أصلحت مرارا

وإن طقّ الزمن

لازمك توب جديد [1]

هنا دهشة بلاغية جديدة من حميد ، تتمثل في الجناس بين :إنطقن" بمعنى تم إصلاحها كثيرا وتكرارا ومرارا ، و"إن طقّ" أي مهما طال الزمن .

برّر عم عبدالرحيم حاجة زوجته لثوب وحذاء جديدين بخشيته على زوجته النبيلة من الحرج أمام صويحباتها وجاراتها ، فبادلها نبلا بنبل:

عشان يا أم الرحوم ما تنكسفي يوم

لو جاراتنا جن

مارقات لي صفاح [2]

أو بيريك نجاح [3]

ثم لخّص الدنيا كلها في أنها تتراوح بين أمرين ، وتتأرجح بين حالين:

إيه الدنيا غير ؟

لمة ناس في خير

أو ساعة حزن

فالدنيا بين فرح وترح، سعادة وحزن، نعيم وشقاء...

تتجلى الموسيقا التصويرية في أداء مصطفى سيد أحمد للقصيدة ، مثال على ذلك ، حينما أورد مشهد ركوب عم عبدالرحيم وحثه لحماره على السرعة:

نقرط للحمار[4]

---

١) يلزمك
٢) خارجات لحضور زواج
٣) مباركة
٤) صوت يُصدَر لتحريك الحمار

هنا يصدر الصوت الذي يحث الحمار على السرعة.

كذلك حينما ذكر :

مرة العسكري كسار الجبور

تتجلى الموسيقا التصويرية في صوت التكسير فعلا .

ركب عم عبدالرحيم حماره ، وخرج طالبا رزقه، وظهرت الأماني المستحيلة

ياريت التمر

يا ريت لو يشيل

كل تلات أشر [1]

ولا أيام زمان كانت ما تمرّ

يبرز الجناس الرائع بين تمر و تمرّ

وتبرز النوايا الحسنة لو تحققت الأماني المستحيلة:

كان ما جاك هوان

ما لاقاك ضر

كان أكسيك در

خرج عم عبدالرحيم وذهب صوب "المشرع" الموقف ، نقطة التجمع على الشاطئ، وهناك وجد:

زملان الشقا

الجا من الجريف

---

١) كل ثلاثة أشهر

الجا من الجبل

من كل حدب وصوب ينسلون ، وبادلهم تحية بتحية ، ومزاحا بمزاح:

صبّح هاظرهم [1]

نقنق ناقرهم [2]

غاظوه نعل

لكن روحهم طيبة وما يجمعهم أكثر مما يفرقهم، لا يغضبون :

عم عبدالرحيم ما بخبر زعل [3]

كل الناس هنا ما بتخبر زعل

لأنه لا مبرر للزعل:

تزعل من منو

وتزعل في شنو

بينهم رابطة قوية ، فهم أصحاب بل أهل ، فقد قرّب العمل من شطّ به المكان ؛ فهو رابطة معنوية قوية.

ثم يسرح عم عبدالرحيم ، الحر وليس الحر!!!، وهو على ظهر حماره :

والبال اشتغل

البال اشتعل

جناس قمة في الروعة أعطى الكلمات جرسا موسيقيا وأبرز معاني خفية مجسدا الحالة النفسية لعم عبدالرحيم وصراعه الداخلي.

---

(١) مازحهم
(٢) تناقش معهم
(٣) لا يغضب

ثم يأخذنا إلى الحلقة الشريرة والدائرة الجهنمية التي تتأرجح البلاد بينها منذ الاستقلال:

حيكومات تجي وحيكومات تغور

مرة العسكري كسار الجبور

ويوم باسم النبي تحكمك القبور

والناس بين موقفين:

إما تقول بري

أو تحرق بخور

إما أن تقول "بري" ، وما أكثر من قالها ! واعتزل وغادر وهاجر ، وإما أن تحرق بخور ،وتداهن وتتملق ، وما أكثر من فعلها!!

ثم يلفت شاعر الأرض إلى الأرض :

وأرضك راقدي بور

لا تيراب وصل

لا بابور يدور

ذلك عن الفلاح ومأساته، أما الموظف فليس بأحسن حال:

والماهية أف

عيشة هاك وكف

لا تبقى في الجيب ،ولكن تختطف منه بمجرد أن يستلمها "هاك وكف"

والغلاء الطاحن الذي لم يستطع مجاراته فرمز إليه :

والسوق فيك يسوق

بلاغة متناهية جسدتها الاستعارة المكنية ؛حين جعل السوق كائنا حيّا قادرا على أن يسوق المواطن ، والمواطن لا حيلة له ينساق رغما عن أنفه.

ثم تأتي المقارنة الإيمانية المرضية المقنعة المسلية للنفس متدثرة في المفارقة التصويرية ، فأنت يا عم عبدالرحيم مهما ساءت ظروفك :

إلا كمان في ناس فايتاك بالصبر

ساكنين بالإجار

لا طين لا تمر

واحدين بالإجار ما لاقين جحر

وذلك تأسيا بالهدي النبوي الشريف:

(انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم) [1]

ثم يفصّلهم لنا :

عمال المدن

كلات الموانى [2]

الغبش التعاني [3]

بحارة السفن

(١) مسلم (شرح النووي)٩٧/١٨
(٢) العامل الذي يحمل الأمتعة في الميناء
(٣) الفقراء الذين يعانون

حشاشة القصور

لقاطة القطن [1]

والشغلانتو نار والجو كيف سخن [2]

يتماوج اللحن ليميز المعاني ويوضح الفروقات بين المشاهد، فبعد أن كان اللحن حزينا هادئا في وصف حالة الفقر المستشري :

ناسا عشيها دين

مجرورة وتجر

تكدح بالأجر

ومرة بلا أجر

عيشهن كمه

وديشهن هان قدر[3]

يتغير اللحن ليكون راقصا طربيا في وصف الطرف الآخر وبيان حال المعادل الموضوعي :

وناسا حالها زين

مصنع مصنعين

طين في طين

ما مرابا مر

بارد همهم

---

(١) من يعملون في حصاد القطن

(٢) والذين يعملون في مهن شاقة

(٣) جيشهم

لا بيعرق جبين

لا وشن يصر [1]

ثم يموت عم عبدالرحيم - أو يغتال -إن شئت، يموت عبدالرحيم الفقير ، فالفقر عند حميد أشبه بالكفر ، يموت سارحا بخياله مشغول البال مشتعل البال، محاولا تفادي سيارة الشرطة ليقع فريسة لعجلات القطار ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ،ثم:

سال الدم مطر

ليس كالمطر وإنما هو مطر ؛ لكثرته ، وهو من نوع التشبيه البليغ الذي يحذف أداة التشبيه ؛ ليجعل المشبه مشبها به حقيقة ، ليس مثله.

جفل الحمار هربا من سيارة الشرطة ووقع مثل الحجر بعيدا :

طوّح زي حجر

وصف حميد عم عبد الرحيم بطل القصة بأنه:

عم عبدالرحيم يا كمّين بشر [2]

أي رجل أمة ، اجتمعت فيه خصال البشرية فهو رمزٌ لها جمعاء.

ثم يختم حميد رائعته كما بدأها :

فتاح يا عليم

رزاق يا كريم

وتنتهي جدلية الفقر والكفاح واظلم واتساع الفجوة بين أفراد المجتمع.

---

(١) مجموعة

(٢) لا يعبس وجه لهم كناية عن الغنى وراحة البال